

أزمات المرأة في رواية «زقاق المدق» على أساس علم اجتماع المحتوى

فاطمة قادري*

تاريخ الوصول: ٩٥/٩/١٣

فاطمة جمشيدى**

تاريخ القبول: ٩٥/١٢/١٤

الملخص

إنّ الأدب يعكس علاقات الإنسان بالآخرين وبنفسه، كما يكشف عن تصوير الواقع الذي يحيط به؛ لذلك يشعر الإنسان بحاجة إلى فهم الأعمال الأدبية وتحليل مضامينها. إنّ علم اجتماع المحتوى كإحدى مناهج النقد الاجتماعي للأدب يهتم بدراسة محتوى الآثار الأدبية. فقد درست هذه المقالة مضامين رواية «زقاق المدق» خلال الأزمات الاجتماعية الموجودة في شخصية «حميدة» كالشخصية الرئيسية عبر منهج الوصف التحليلي لمحتوى الرواية. فهناك في بداية الأمر تحديد العلاقة بين الاجتماع والأدب والتعريف بمنهج علم اجتماع المحتوى ثمّ أُستشهد بالأزمات الاجتماعية في حياة «حميدة».

الكلمات الدلالية: علم اجتماع المحتوى، الرواية المصرية، نجيب محفوظ، زقاق المدق.

* عضو هيئة التدريس في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة يزد، يزد، إيران (أستاذة مشاركة). mf.ghaderi@gmail.com

** طالبة الدكتوراه في فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة يزد، يزد، إيران. f.jamshidi1364@gmail.com

الكاتبة المسئولة: فاطمة جمشيدى

المقدمة

يدور علم اجتماع المحتوى حول انعكاس مضامين الاجتماعية في الآثار الأدبية ومدى التزام الأدباء بهذا الأمر وهذا يربط بمدى التزام الأديب بالقضايا الاجتماعية في آثاره؛ فالالتزام الأديب يعنى وجوب مشاركته بالفكر والشعور والفن في القضايا الوطنية والإنسانية، وفيما يعانى الآخرون من آلام ويبنون من آمال (هلال، ١٩٩٧م: ٤٥٦)؛ وقد حاول كثير من الأدباء التوفيق بين الاهتمام بانعكاس المضامين الاجتماعية والالتزام بها وبين الاهتمام بمقتضيات العمل الأدبي (صابر، ١٩٩٠م: ٢٠٤). فإنهم يصوغون مقولة الأدب بوصفه انعكاساً نمطياً للمجتمع وقضاياه الاجتماعية، ويرى سارتر أن الكاتب الالتزامى يدرك أن «الكلام عمل» والمضمون قبل كل شيء هو بغية الكاتب، ومقصده ثم يأتى بعده استخدام الأسلوب والصيغة ولكن على الكاتب أن يحذر سبق الأسلوب الموضوع والمضمون (صابر، ١٩٩٠م: ٢٠٨ - ٢١٦).

فكل هذا هو ما حرّضنا على دراسة هذا الموضوع فى مقالتنا هذه. هدفت الدراسة الحالية إلى تتبع أنواع الصراع المختلفة التى تعانى منها المرأة المصرية متكئة على شخصية «حميدة» فى رواية «زقاق المدق»، وكيفية تناول هذه الرواية لأزمات الأدوار عند المرأة المصرية آنذاك، ومدى مطابقتها للواقع والحقيقة الاجتماعية كما حاولت أيضاً التعرف على أوضاع المجتمع المصرى والتغيرات التى طرأت عليه فى فترة موضوع الدراسة فى بعض المجالات الاجتماعية؛ وكل هذه الأمور تتحقق على أساس علم اجتماع المحتوى.

فبما أن هذه الأزمات توجد فى العالم العربى فى الزمن الراهن، فمن الضرورى أن ندرس مثل هذه الروايات التى تطرقت إلى موضوع النساء عامةً والفتيات خاصة حتى يلفت علماء الاجتماع أنظارهم إليها ليبدلوا بأرائهم فى حل مشاكلهن الروحية. للوصول إلى هذا الهدف قامت المقالة بتبيين النقد الاجتماعى كإحدى فروع النقد الأدبى ثم ألفت نظرة عابرة على النقد الاجتماعى وعلم اجتماع الأدب، ثم تطرقت إلى علم اجتماع المحتوى وأهدافه؛ وبعد ذلك درست الأزمات الاجتماعية الموجودة فى حياة «حميدة» فى الرواية المدروسة عبر المنهج الوصفى التحليلى للفحص عن الأزمات الاجتماعية التى غلبت على حياة هذه الفتاة حتى تُجيب عن الأسئلة التالية:

- (١) ما هو دور علم اجتماع المحتوى في الكشف عن المعضلات الموجودة في مجتمع مصر أثناء الحرب العالمية الثانية من خلال رواية زقاق المدق؟
- (٢) كيف تبرّر أهمية هذه الرواية من منظور دراسات علم اجتماع المحتوى؟
- (٣) كيف استخدم نجيب محفوظ شخصية «حميدة» رمزاً للمجتمع المصري بما فيه من المعضلات الاجتماعية؟

ومما يجدر بالذكر أنه استهدف هذا البحث إلى ما يقدمه علم اجتماع المحتوى من الفوائد في مجال فهم الآثار الأدبية حيث يكاد يكون دراسة الأدب من هذا المنظور أقرب المناهج إلى طبيعة الفكر الإنساني والثقافة البشرية، وأكثر التصاقاً بالواقع الاجتماعي وعلى هذا الأساس تكون دراسة هذه الرواية وفق المنهج المذكور أمراً ضرورياً.

خلفية البحث

أبرز ما ركّز على نجيب محفوظ من البحوث هي «الرمزية في أدب نجيب محفوظ» لجواد اصغرى الذى وصل إلى أن نجيب محفوظ بهذه الروايات تطرّق في رواياته الرمزية إلى شؤون الشعب المصري، كما اعتاد أن يعمل هكذا في رواياته الواقعية ولكن بعد فشل الثورة الاشتراكية استفاد من الرمز لتصوير المجتمع المصري وتبيين عوامل هذا الفشل وإيضاح الوضع الراهنة للشرائح المختلفة التي شاركوا في الثورة.

والمقالة الأخرى هي «قراءة في المدرسة الأدبية لرواية الثلاثية لنجيب محفوظ» لفرامرز ميرزايى ومظفر اكبرى مفاخر ومن نتائج هذه المقالة هي أن نجيب محفوظ أتصل الأدب بالتاريخ والاجتماع والفلسفة، وكلّ ما يربط بالمصريين وما سيحدث لهم في بلادهم وأيضاً أشارت هذه المقالة إلى الثنائية الثقافية بين الشرق والغرب، وبين الحرية والاستبداد وبين الإيمان الحقيقي والإيمان الكاذب حيث تتجلى هذه الثنائيات كلّها في أعمال شخصيات الرواية منبعثة من لاوعيتهم.

وأيضاً مقالة «أزمة المرأة في عدد من قصص نجيب محفوظ» لحسين شمس آبادى وغلانرضا گلچين راد وفرشته أفضلى؛ و«التحليل الاجتماعي لرواية "زقاق المدق" لنجيب محفوظ» لحسن عبداللهى واميد ايزانلو التي تطرّق الباحثان فيها بظروف مصر الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بشكل عام وقاموا بتعريف شخصيات الرواية في سطرين على

الأكثر وفي مجال شخصيّة «حميدة» أشار إلى نزعه الشديدة إلى الثروة مع طموحها للخروج من الزقاق كما أشار إلى هذا الطموح في «عبّاس الحلو» و«حسين كرشة» ولم يفسّر بقيّة الأزمت الموجودة في شخصيّة حميدة التي تطرّقنا إليها بالتفصيل في مقالتنا هذه، والمقالة الأخرى هي «صدى المرأة في الأعمال النقدية الواقعية لنجيب محفوظ» لكبرى روشنفكر وصلاح الدين عبدى التي تطرّقت إلى أربع روايات من نجيب محفوظ منها رواية «زقاق المدق» أشار إلى رأى نيّشه حول النساء، كما قسم نساء هذه الرواية إلى أقسام عديدة وجعل «حميدة» عضواً في مجموعة النساء المعشوقات وأيضاً في مجموعة النساء الفقيرات، والبحث الآخر هو كتاب «الرمزية في أدب نجيب محفوظ» لفاطمة الزهراء محمّد سعيد مع ترجمة نجمه رجايبى الذى أشارت الكاتبة إلى ميل «حميدة» إلى الثروة ورفهية العيش ولم تذكر الأزمت الأخرى في حياة هذه الفتاة وكيفية معاملتها مع هذه المصائب. فجديراً بالذكر أنه لم تتطرّق هذه الكتب والمقالات إلى رواية «زقاق المدق» كما تطرّقنا إليها في مقالتنا هذه.

النقد الاجتماعي وعلم اجتماع الأدب

النقد الأدبي هو فنّ دراسة الأعمال الأدبية دراسةً تقوم على التحليل والشرح والتفسير لتذوقها تذوقاً صحيحاً والحكم لها أو عليها بموضوعية وإنصاف. ويختلف متذوقوا الأدب في نظرتهم للأعمال الأدبية وحكمهم عليها باختلاف الأسس التي يعتمدون عليها في نقدهم والقواعد التي يتبعونها في إصدار الأحكام (صيّداني وآخرون، ١٣٩٤ش: ٣٤). هناك للأدب انعكاسات اجتماعية عديدة كما يؤكّد جورج لوكاتش (١٨٨٥-١٩٧١م) هذا الأمر قائلاً بأنّ الأدب يعكس المجتمع (قصاب، ٢٠٠٩م: ١٤٥) وهو في حد ذاته يعدّ انعكاساً اجتماعياً حتّى في أكثر موضوعاته الشخصية، فهو نشاط اجتماعي قبل أن يكون نشاطاً لغوياً، وحتّى اللغة تُفسّر من منظور اجتماعي قبل أن تفسّر من منظور آخر (فراج، ٢٠٠٣م: ٩٦). وبما أنّه تتركز وظائف علم الاجتماع وأدواره في وظيفة مجتمعية (عبد المعطى، ١٩٨١م: ٧٢) نستطيع أن نقول إنّ الأديب يستخدم أثره - شعراً كان أو نثراً- أداةً لإنجاز هذه المهمة (منتظري وآخرون، ١٣٩١ش: ١٥٢)؛ لذلك إنّ نقاد الأدب ومنظريه في جلّ عملهم يركزون على اجتماعية المضمون وبرغم الإلحاح المتواصل على تلازم الشكل

والمضمون فإنّ دراسة المضمون ظلّت هي المهيمنة وليس ثمة شك في أهمية هذا المنحى في سياق الوعي بظاهرة اجتماعيّة الأدب (بدوى، ٢٠٠٦م: ٧). والمحاولات الحديثة للنقد الأدبي الاجتماعي قد ظهرت مع المفهوم الأفلاطوني الشهير «المحاكاة» الذي نماه بعده أرسطو بعبارة المعروفة: «إنّ شعراً الملاحم وشعر التراجيديا، وكذلك الكوميديا كلّ هذا بوجه عام أنواع من محاكاة الواقع». ويرى إسكارييت أنّ الواقعة الأدبية كعملية يشكلّ العنصر الاجتماعي مظهراً من مظاهرها، وأنّ هذه الواقعة على مستوى التنظيم، يشكلّ العنصر الأدبي أحد مظاهر العنصر. ويهتمّ علم اجتماع الأدب بدراسة الأجيال الأدبية والقيم الاجتماعيّة للجماعة كما أنّه يعمل على ارتباط الفكر الأدبي بأدوات الإنتاج الاجتماعيّة والبطل المشكل في الرواية هو ذلك البطل الذي يدور في فلك الأطر الاجتماعيّة ذات القيمة العالية أو المنحطة بهدف تعريتها والتفاعل معها أو رفضها ويعتقد بأنّ أيّ مؤلّف أدبي أو روائي لا يظهر من العدم بل تفرزه ظروف تاريخيّة واجتماعيّة ملموسة. يهتمّ المنهج الاجتماعي بالرواية أكثر من غيرها من الفنون الأدبيّة الأخرى وهذا الاهتمام راجع إلى كون الرواية تقدّم كثيراً من القضايا الاجتماعيّة «ومن أهمّ الروايات التي علّجت التحوّلات الاجتماعيّة في مصر هي رواية زقاق المدق /سنجيب محفوظ» (مرتاض، ١٩٩٨م: ٤٥) الذي يجب أن يُعدّ أكثر الكُتاب الروائيين العرب تعدّداً رؤية وأشدّهم تسجيلاً للحياة الاجتماعيّة والتاريخيّة المصرية (المصدر نفسه: ٩٢).

علم اجتماع المحتوى

علم الاجتماع هو الدراسة العلمية الموضوعية للإنسان في المجتمع وهو يحاول أن يدرس النظم والعلاقات والعمليات الاجتماعيّة. من المناهج المستخدمة في علم الاجتماع هو منهج تحليل المضمون أو المحتوى «Content Analysis Method»؛ إذ في كثيرٍ من الأحيان يركّز علم الاجتماع على دراسة محتوى المؤلّفات الأدبيّة وجوهرهم الاجتماعي إضافة إلى الصلّة الوثيقة بين الأدب والمجتمع (رحمدل وفرهنگي، ١٣٨٧ش: ٣٩). قام هانري زالامانسكي بدراسة الآثار الأدبيّة عبر هذا المنهج ورأى بأنّ الانتزاع من مضمون الآثار الأدبيّة هو خير وسيلة لدراستها وتحليلها (عسكري حسنكلو، ١٣٨٧ش: ٦٩) واستخدام محتوى الأثر الأدبي في هذا المنهج كوسيلة لدراسة مستوى انعكاس التحوّلات

السياسية والاجتماعية والاقتصادية حتى يبين الصلة الوثيقة بين المؤلفات الأدبية وبين النزعات الفكرية للطبقات الاجتماعية. يسعى هذا المنهج كيفية انعكاس الحياة الاجتماعية في مرآة الأدب ويفترض الأثر الأدبي كوثيقة اجتماعية فيعتنى به ويفحصه (غريس، ١٣٨١ش: ١٤). فملخص القول أن هذا المنهج عبارة عن الوصف الموضوعي للمحتوى الظاهر لموضوعات الاتصال الجمعي الذي يحصل عليها الباحث من الإذاعة والصحافة ومختلف المؤلفات العلمية والأدبية وذلك للكشف عن القيم والآراء والاتجاهات الثقافية والسياسية التي تسود المجتمع في الماضي والحاضر والمستقبل مما يساعد في الوقوف على عوامل التغيير الاجتماعي وشكل المجتمع بعد التغيير.

وكذلك يهتم هذا المنهج بمحتوى النص من خلال تأثيره على المتلقى ومدى وعيه الاجتماعي (زالامانسكي، ١٣٨١ش: ٣٢٠). يعتقد زيدان عبد الباقي أن هذا المنهج يستخدم في تصوير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية القائمة في المجتمع. كذلك محمد الجوهري يرى بأن تحليل المضمون طريقة تمكن عالم الاجتماع من ملاحظة سلوك الأفراد بطريقة غير مباشرة من خلال تحليله للأشياء (الرموز اللفظية) التي يكتبونها (سالم، ١٩٨٣م: ٤٥). فتحليل المضمون يفيد في التعرف على المغزى الحقيقي للأعمال الأدبية ومدى ارتباطها بالواقع أو تعبيرها عنه ومن ثمة دعامة أساسية في ميدان سوسولوجيا الأدب «من أهم وظائف علم الاجتماع هو خلق الصلة بين تجارب الشخصيات الواقعية والخيالية في الآثار الأدبية وبين الحياة الاجتماعية حتى يبدل التأويلات الأدبية كقسم من علم الاجتماع» (لونتال، ١٣٨٦ش: ٧٦). فمن الضروري أن نهتم بما يتعرض به الناس من خلال المؤلفات الأدبية ومن أية نزعة يبينه الأديب وفي النهاية ماذا يقترح لحل المشاكل في المجتمع؛ فعلى هذا الأساس لا يبالي الناقد في هذا المنهج بشخصية الأديب وحياته ونزعاته أبداً بل همّه الرئيس هو ما يُشرح في الآثار الأدبية من النزعات والإيدئولوجيات التي تخلق حياة الناس الفكرية فيما بعد.

الشخصية في الروايات الاجتماعية

إن الشخصية هي واسطة العقد بين جميع المشكلات الأخرى في الرواية والقصة؛ حيث إنها هي التي تخلق اللغة وتبت أو تستقبل الحوار، تصطنع المناجاة أي حديث

النفس «Monologue» وتصف معظم المناظر وتنجز الحدث وتنهض بدور تضريم الصراع أو تنشيطه من خلال سلوكها وأهوائها وعواطفها وهي التي تقع عليها المصائب (مرتاض، ١٩٩٨م: ٩١). والشخصية تسخر لإنجاز الحدث الذي وكل الكاتب إليها إنجازها. وتعامل الشخصية في الرواية على أساس أنها كائن حي له وكانت الشخصية تلعب الدور الأكبر في أي عمل روائي كما فعل بالزك، إميل زولا ونجيب محفوظ ويبدو أن العناية الفائقة برسم الشخصية، أو بنائها في العمل الروائي، كان له ارتباط بهيمنة النزعة التاريخية والاجتماعية من جهة، وهيمنة الإيديولوجيا السياسية من جهة أخرى. فكان الشخصية في الرواية التقليدية كانت هي كل شيء فيها؛ بحيث لا يمكن أن نتصور رواية دون طغيان شخصية مثيرة يقحمها الروائي فيها؛ إذ لا يضطرم الصراع العنيف إلا بوجود شخصيات تتصارع فيما بينها، داخل العمل السردى (مرتاض، ١٩٩٨م: ٧٥-٧٦). لما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها واجهت الرواية العالمية الاهتزاز والتشكيك في قيمة شخصياتها، وصدق تمثيلها لصور الحياة الاجتماعية، فكان بعض الروائيين متعصبين لضرورة قيام الشخصية في الرواية بوظيفتها الاجتماعية (المصدر نفسه: ٩٢).

فالرواية السيكولوجية هي التي تتجه نحو تحليل الحياة الداخلية وتتميز بسلبية البطل ووعيه الذي كان أوسع من أن يرضى عما يمكن لعالم الاتفاق أن يقدمه له (غولدمان، ١٩٩٣م: ١٦). ومن أهم الميزات التي تتصف بها الشخصيات في الروايات الاجتماعية هي تتحلى الشخصية بصفات ثابتة وتدور أعمالها حول محور واحد، تتميز بالإفراط في صفاتها الحسنة أو السيئة، إن البطل - وهو الشخصية الرئيسة - في الروايات الاجتماعية يعارض المجتمع في كثير المجالات فتنتهي هذه المعارضة والمقابلة إلى هزيمته وتسليمه أمام الواقع (ميرعابدينى، ١٣٨٠ش: ١ / ٦٠) وبما أنه كتبت هذه الرواية خلال الحرب العالمية الثانية فعلينا الإشارة إلى أوضاع مصر أثناء هذه الحرب ثم المبادرة بدراسة الرواية.

رواية زقاق المدق

إن رواية «زقاق المدق» إحدى روايات نجيب محفوظ في المرحلة الاجتماعية الواقعية. «تأخذ نجيب محفوظ من قصصه وسيلةً لتنوير الأفكار وتحسين المجتمع مع اتسام رواياته بالرمزية والواقعية الفلسفية. نقل نجيب محفوظ في أعماله حياة الطبقة المتوسطة

فى أحياء القاهرة، فعبر عن همومها وأعمالها، وعكس قلقها وتوجساتها حيال القضايا المصرية، كما صور حياة الأسرة المصرية فى علاقاتها الداخلية وامتداد هذه العلاقات فى المجتمع» (ريحاني أردبيلي وديباجي، ١٣٩٣ش: ٤٣). تدور هذه الرواية حول أحداث وقعت فى زقاق قديم من أحياء القاهرة القديمة خلال الحرب العالمية الثانية. إن «زقاق المدق» هو المحور الأبرز فى الرواية، المرتبط بكل ما فيها من شخصيات وأحداث ارتباطاً وثيقاً. فالصراع فى هذه الرواية قائم على أساس علاقة الإنسان بالمكان، والعلاقات بين الناس بعضهم مع بعض، وعلاقتهم بالعالم الخارجى. فـ «حميدة» بنت الزقاق المتمردة العنيدة على كل ما حولها، والجميلة الفاتنة التى تأسر ألباب الرجال بجمالها وغنجها، همها الوحيد هو الخلاص من الزقاق ومن كل ما يرتبط به عندها من فقر وعيشة وضيقة، وذلك بأية وسيلة، ومهما كان الثمن لكنها تنتهى بين أحضان الإنجليز مستخدمة جسدها للحصول على الأموال و الوصول لرفهية العيش وزخارفها. حيث انجرت خلف قواد هو «فرج إبراهيم» لتسقط عن طريقه فى مهاوى الرذيلة، وتحوّل إلى عاهرة فى حانات الإنجليز، ضاربة بعرض الحائط ذلك الشاب المخلص «عباس الحلو» الذى عاهدته قبل رحيله على الزواج، فلم يخرج من الزقاق إلا وقد قرئت فاتحتهما، ولم يخرج منه إلا من أجلها ليوفر لها المال والحياة المترفة التى لم تكن لترضى عنها بدلاً ولكنه يموت على يد الإنجليز وهو يحاول انتزاعها من بينهم.

شخصية حميدة فى رواية زقاق المدق

إن نجيب محفوظ منذ بداية إنتاجه الأدبى أولى للمرأة و لوضعها الاجتماعى اهتماماً كبيراً ولاسيما فى رواياته الواقعية الأولى التى حرص فيها على إدراج مناقشات ساخنة بين الشباب ويعبر فيها عن آرائه بشأن قضية المرأة وتعليمها (العشماوى، ٢٠٠٥م: ٢٣). ففى بعض الأحيان تجسد الشخصية النسائية الحياة اليومية فى الأحياء الشعبية مثلما حدث فى «زقاق المدق» حيث عرض حياة أهل الزقاق من خلال «حميدة» البطلة المتمردة على الزقاق وتقاليدده وعلى من فيه (المصدر نفسه: ١٨٧). إن «حميدة» شخصية تتطلع إلى الدنيا بعين الحرمان وتندفع إليها بقوة قلب يفيض بالرغبة فى الحياة والثراء دون قيود داخلية وقد تركت الزقاق تنهدر إلى هاوية الشهوات من أجل المال والرغبة فى الثراء.

حميدة تجسّد حىّ لواقع كانت تعيشه مصر. ولهذه الشخصية مكانة خاصة تختلف عن الشخصيات الأخرى في الرواية كلّها وقد اختلف النقاد حول هذه الشخصية منهم الدكتور طه الوادى بأنّ «حميدة» تعنى مصر (الغيطاني، ١٩٨٠م: ٢٠١). في هذه الرواية يأتي نجيب محفوظ بشخصية «حميدة» وهي فتاة جميلة تعيش بين شخصيات «زقاق المدق» الذى تصفه في النهاية بأنّه زقاق العدم، و«حميدة» كما يصرّوها المؤلف في الرواية هي شخصية شديدة الطموح، تتطلع عيونها الجميلة إلي ما هو أبعد من عالم الزقاق وقلبها يخفق لمراي البنات الجميلات وهنّ يرفلن في ملابسهن الجميلة، فلا تملك «حميدة» إلّا أن تقول ما قيمة الدنيا بدون الملابس الجديدة! نعم هي متمرّدة شغوف بأن تعيش حياة أخرى في عالم آخر ولم تكن الظروف تعمل لصالحها دائماً حينما قذفت بنفسها إلى قلب المدينة الصاخبة وهي تعيش في أجواء الحرب العالمية الثانية، وكانت الحرب بأثارها الماديّة والاجتماعيّة هي التي دفعت بحميدة إلى الانحراف.

الأزمات الاجتماعية في رواية «زقاق المدق»

على أساس ما ذكرنا فيما قبل حول محور الرواية المدروسة وبطلتها «حميدة»، فعلينا التطرّق إلى الأوضاع الاجتماعية في هذه الرواية والأزمات التي تعرّضت حياة «حميدة» وجعلتها متمرّدة، ثمّ يجب دراسة معاملة «حميدة» تلك الظروف السائدة على حياتها كما يلي.

١. التضاد الطبقي

ترتبط مكانة الفرد بطبقته الاجتماعية ارتباطاً حيويّاً؛ وربّما يكون الوضع الطبقي هو المحدّد الأول لمكانة الانسان في المجتمع ومدى قبوله عند الناس. وفي بعض الأحيان إنّ الشخص الذى ينتسب إلى طبقة غير رفيعة فهو الذى تدمرّ أية فرصة لقبوله في الجماعة (عودة، لا تا: ٢١٨). هناك عبارات عديدة في هذه الرواية تبين لنا موضع «حميدة» الاجتماعي؛ فمنها توصيف نجيب محفوظ لها: «فما تدري إلّا وصويحباتها من بنات المشغل يقبلن نحوها غير بعيدات!» (محفوظ، لا تا: ١٧٢) وإذا قال المؤلف حول أتراب «حميدة» هكذا: «واستحثت حميدة خطاها حتّى التقت بصويحباتها، ثمّ عادت

معهنّ وقد أنذرنها بأنهن سيفقدن قريباً إحداهنّ التي ستتزوج من زنفل صبي دكان طعمية سيدهم» (المصدر نفسه: ١٧٥). وأيضاً إنّ المؤلف يُسدل الستار عن هذا الأمر بهذه العبارات: «ومرّت عند ذاك بعطفة العوارجة حيث يقيم بعض صويحباتها فتمتّت أن يرينها وهذا الأفندي يغازلها» (المصدر نفسه: ١٧٨). وكذلك عندما خاطبت «حميدة» نفسها إذا سمعت «فرج ابراهيم» يقول للسائق: «شارع شريف باشا ... شريف باشا، لا المدق، ولا الصناديق ولا الغورية ولا حتّى الموسيقى، شريف باشا!» (المصدر نفسه: ٢٠١) وشبيهه بالعبارات الماضية هذه العبارة التي قال الأفندي للسائق: «إلى ميدان الأوبرا أولاً ثمّ غد إلى شارع فؤاد الأوّل، واحدة واحدة من فضلك» (محفوظ، لا تا: ٢٨٤).

وعليّنا أن نقرّ بأنّ أجمل عبارة تدلّ على البون الشاسع بين «حميدة» و«فرج ابراهيم» هي العبارة التي أورد بها نجيب محفوظ عند توصيف «حميدة» زمن ركوبها تاكس للذهاب إلى بيت «فرج ابراهيم»: «قال (فرج ابراهيم): إذا شئت ركبنا تاكس فيقطع بنا مسافة طويلة في دقائق معدودات». فقال المؤلف إثر هذا الكلام: تاكس! لقد رنت الكلمة في أذنيها رنيناً عجيباً و لم تكن ركبت في حياتها إلّا العربية الكارو، ومضت ثوانٍ قبل أن تفيق من سحر الكلمة العجيبة» (المصدر نفسه: ٢٠٠ - ٢٠١). و«جاءت السيّارة ففتح لها الباب، ورفعت قدمها لتصعد إليها، ففصلت هذه الحركة بين حياتين» (المصدر نفسه: ٢٢٠). ولكن عندما يتحدّث المؤلف حول «فرج ابراهيم» وأعماله وأقواله تجاه «حميدة» نعر على عبارات تصدّق على طبقة «حميدة» الاجتماعية وعلى ما بينها وبين «فرج ابراهيم» من البعد الطبقي لاسيّما في هذه العبارة التي خاطب «فرج ابراهيم» «حميدة»: «كيف تسيرين بملاءتك بين هولاء الفتيات! ... أين هنّ منك! أميرة في ملاءة، ورعية ترفل في الثياب الجديدة» (المصدر نفسه: ١٧٨) و«ضحكت (حميدة) ضحكة قصيرة وقالت: أراك تذكرني بأنّه ينبغي أن أعود الآن إلى البيت. وكان (الأفندي) في الواقع يستلهم خطة مرسومة من قبل، فقال بإنكار: أي بيت تعنين ... بيت الزقاق! ... آه ليتك تمسكين عن ذكر ذاك الحيّ جميعاً. ماذا يعجبك في هذا الزقاق؟ لماذا تعودين إليه» (المصدر نفسه: ٢٠٨) وكذلك عندما خاطبها هكذا: «فأذني لى أن أسألك بدورى: لماذا تعودين إلى المدق؟ أنتنظرين هناك شأن الفتيات البائسات حتّى يتعطّف رجل من مخلوقات الزقاق فيتزوّجك ويلتهم حسنك النضير وشبابك الغض ثمّ يتركك في لقي في الزبالة» (المصدر

نفسه: ٢٠٩). ففي كلّ العبارات التي أوتيت بها في هذه السطور نشاهد طبقة «حميدة» الاجتماعية عند توصيف نجيب محفوظ لها ومدى بُعدها عن الحياة المليئة بالرفهية التي كان يغرق فيها «فرج ابراهيم» وصويحباتها.

٢. الكفران

الكفران من الصفات الذميمة وهو بمعنى عدم الاهتمام بحسنات الآخرين أى المعاملة السيئة تجاهها. وكان الكفران من ميزات «حميدة» الخلقية حيث لم تكن معاملتها مع أمها معاملةً حسنةً، وإذا دققنا في أعمال «حميدة» من هذا المنظار يتّضح لنا ميزتها هذه أكثر فأكثر ومن آثار هذه الميزة في تصرفاتها نستطيع الإشارة إلى كلامها خطاباً لنفسها بعد نزاعها مع أمها: «آه يا خسارتك يا حميدة، لماذا توجدني في هذا الزقاق؟! ولماذا كانت أمك هذه المرأة التي لا تميّز بين التبر والتراب؟!» (المصدر نفسه: ٣١)، أو عندما خاطبتها «حميدة» حينما كانتا تتحدثان حول أهل الزقاق شكّت «حميدة» قائلةً: «سادة دنياك أنت، كلهم كعدمهم، اللهم إلّا واحداً به رمق جعلتموه أخي» (المصدر نفسه: ٣٠)، وكذلك حيث لامت أمها وتنهدت: «حياة اليهود هي الحياة حقاً» فانزعجت أمها وقالت: إنك من نبع أبالسة ودمى برىء منك...» (محفوظ، لا تا: ٤٥). في النموذج الأول تخاطب «حميدة» نفسها وتشكو من ظروف حياتها ولاسيما العيش عند امرأة لا تلائمها ولا تستطيع أن تتكيف مع تطلّبات «حميدة»، وفي المثالين الثّاني والثالث تشكو من الحياة مخاطبةً أمها فكأنها تعدّ أمها السبب الرئيس في تلك الحياة الدنية مع أن أمها كانت لا تعلقو جهداً إلّا وبذلتها لتعدّ أسباب حياة سليمة لها ولكن لم ترض نفسها الأبيّة الطامحة.

٣. تعارض الأجيال

هناك أحداث عديدة تحوّل أفكار الأشخاص ورؤيتهم إلى المجتمع وكذلك إلى أنفسهم، وفي النهاية تتمثل هذه التحوّلات كأعمال مختلفة لاسيما من قبل الشباب؛ إذ إنهم يقضون مرحلة إكمال شخصيتهم في المجتمع وبالنسبة إلى كيفية التحوّلات وانعكاسها يبرز الاختلاف بين الأجيال أكثر فأكثر (كاظمي پور، ١٣٨٢ش: ٢٣). بعبارة أوضح، عندما ينتقل الأطفال من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب وهي مرحلة الإزهار،

يتغير أسلوب تعاملهم، فهم لا يرغبون في الاستماع إلى والديهم ويعدون كلامهم من قبيل الوعظ المفرط ويفضلون عليهم أصدقاءهم (الصائغ، ٢٠٠٩م: الاختلاف في الرأي بين الآباء والأولاد، muntada.islamtoday.net) والوالدان الحافظان لسنن الأجداد الأصيلة لا يطيقان طرد تلك السنن من قبل الأولاد، فتحول تلك التعارضات بين الأبناء والوالدين حاجزاً أمام انتقال الثقافات والقيم الأخلاقية إلى الأجيال القادمة بصورة صحيحة. وفي رواية «زقاق المدق» كان للعيش بجانب امرأة كبيرة السن أثر سيء في حياة «حميدة»؛ إذ أدى ذلك البون الشاسع إلى الفروق الكثيرة المخربة بينهما، حيث كانت «حميدة» لا تقبل نصائح أمها ولم تستطع أن تتكيف مع طموحات أمها، فبرز التعارض بينهما في الأعمال والأقوال؛ فمن ملامح هذه الظاهرة نستطيع أن نشير إلى الحوار الذي جرى بينهما حول زواج «سنية عفيفي»، فتولت الفتاة الدهشة وقالت: - الزواج! - أجل، وتريد شاباً. أسفى عليك من شابة عاترة الحظ لا تكدمن يطلب يدها! فحدجتها الفتاة بنظرة شزراء وقالت وهي تضفر شعرها: - بل أجد كثيرين، ولكنك خاطبة فاشلة تريد أن ندارى فشلك. وماذا بي ممّا يعيبك؟ ولكنك كما قلت امرأة فاشلة، يصدق عليك المثل القائل: «باب النجار مخلع» ... فابتسمت أم حميدة قائلة: - إذا تزوجت الست «سنية عفيفي» فلا يصح لامرأة أن تيأس ... ولكن الفتاة رمتها بنظرة غاضبة وقالت بحدّة: - لست أجرى وراء الزواج، ولكنه يجرى ورائي أنا، وسأنبذه كثيراً ... / - طبعاً أميرة بنت أمراء! فتغاضت الفتاة عن سخرية أمها وقالت بنفس اللهجة الحادة: - أفي هذا الزقاق أحد يستحق الاعتبار؟! ولم تكن الأم في الواقع يداخلها خوف على الفتاة من البوار ولا تشك في جمالها ولكنها كانت كثيراً ما تثور بعجبها وغرورها «محفوظ، لا تا: ٢٩». وهذا الحوار يدل على ما بينهما من النزاع حول الزواج الذي يرتبط كثيراً بأفكار الناس ووجهة نظرهم حول الحياة ولاسيما إذا كان النزاع حول هذه الظاهرة بين الأبوين وأولادهم الذين يرون أن الأبوين لا يعرفون إلا قليلاً عما يدور حولهم من القضايا الموجودة في مجتمعهم حيث كان وفي أي زمن ما. وإن كثرة الكنايات في هذه العبارات تُرشدنا إلى فهم ذلك التعارض ويدل على مدى تحسرها من هذه الفاصلة الفارقة بينهما. كذلك عندما تحدّثت «حميدة» مع أمها حول زواجها - زواج حميدة - بـ «سليم علوان» ونسيانها «عبّاس الحلو» هكذا: «هزت منكبيها استهانة، وقالت باستخفاف واحتقار: - ذبحة ... / - ماذا يقولون الناس عنّا؟»

- دعيهم يقولون ما بدا لهم» (محفوظ، لا تا: ١٥١). نرى أثر هذه الظاهرة في أقوالهما؛ إذ لا تبالي «حميدة» بأقوال الآخرين حول هذا العمل ولكن أمها تهتم بما يفكر الناس ويقولون.

٤. العنف

هناك ظروف، وإن لم تؤدّ إلى هذه الظاهرة مباشرة وحتمية، فهي تخلق المناخ الذي يغري به أو يدفع إليه، مثل البطالة وعجز الشباب عن تحقيق مطالبهم المشروعة وانعدام تكافؤ الفرص والاستهتار بحقوق الانسان (المصدر نفسه: ١٧٥ - ١٧٦). قد شهد المجتمع المصرى نمواً ملحوظاً في ظاهرة العنف؛ منها العنف السياسى، العنف الدينى، العنف الأسمى، وغيرها من الأشكال التى اتخذت لنفسها مكاناً على ساحة المجتمع المصرى، فإنّ تناول ظاهرة العنف فى المجتمع المصرى تُعتبر إحدى الملامح الذى أصبح يشكل آلية من آليات التفاعل الاجتماعى داخل الأسرة خاصّة أو داخل المجتمع المصرى عامة (محمد، ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩ م: ٧). وفى مجال أحوال «حميدة» علينا الإذعان بأنّه عندما يعيش الإنسان عيش الضنك فى تلك الظروف التى كانت تعيش «حميدة» وهى كانت تقارن نفسها مع بنات المشغل والأثرياء وتتعارض دائماً مع أمها، فمن البديهي أن يغلب عليها السخط وبالتالى يؤثّر هذا السخط والعنف على كثير من أعمالها وأقوالها لاسيّما عند التحدّث حول أهوائها وأهدافها فى الحياة، ومن تجلّت هذه الظاهرة يجدر الإشارة إلى ما قالت لأمها عندما تذكّرتّها تعارضهما حول الجلباب هكذا: - أكلة شاربة ثم لا تشكرين. أتذكّرين كيف أطلقت لسانك الطويل بسبب جلباب؟! فقالت «حميدة» بدهشة: و هل الجلباب شىء يهون؟! ... ما قيمة هذه الدنيا بغير الملابس الجديدة؟! ألا ترين أنّ الأولى بالفتاة التى لا تجد ما تترزين به من جميل الثياب أن تدفن حية؟! (محفوظ، لا تا: ٣٠)، أو عندما طلب منه «عبّاس الحلو» أن تتحدّث معه فى السوق حتّى يخبرها عن حبّه إليها، فخطبته «حميدة» بالعنف والغضب: «لقد جاوزت حدّك. كلّا ... كلّا ... دعنى ...» (المصدر نفسه: ٤٧). وكذلك عندما عاتبته أمها عند نسيانها «عبّاس الحلو» قائلة بسخرية: «من حقّك أن تبيعى صينية البسبوسة بصينية الفريك ...» وصف المؤلف «حميدة» هكذا: «نظرت إليها بتحدّ وقالت بغيظ: «بل رفضتُ شاباً واخترتُ شيخاً» (المصدر نفسه: ١٥٥)،

وأيضاً إذا لامها الأفندي بسبب اندراس ملائتها، أجابته «حميدة» بحدة: «ما لك أنت ولهذا! ... ابتعد...» (المصدر نفسه: ١٧٨).

وكذلك تبرز هذه الميزة عند تحاورها مع الأفندي «فسألته بحدة: - ماذا تريد؟/ فقال بجرأة عجيبة: - أريدك أنت، ولا شيء غيرك ... -/ ذبحة .../ - سامحك الله. لماذا تغضبين؟ ... ألسنت في الدنيا لتؤخذى؟ ... وإني لأخذك .../ ومرآ في طريقيهما ببعض الدكاكين، فنهزته قائلة: - لا تخط خطوة واحدة، وإلا .../ فقال مبتسماً: - الضرب؟ .../ - وخفق قلبها وتألقت عيناها، فقالت: - صدقت...» (المصدر نفسه: ١٧٩).

ولا تنبعث هذه العبارات إلا من نفسٍ غلب عليها العُنف والسخط الشديد الذى ينبع من عيشها الضنك، وكذلك سخطت عليه فى موضع آخر قائلة: - «إني أمقت هذا التهجّم، فاحذر أن تخرجني عن وعيي ... / وطالع نذر الشرّ فى وجهها فسألها فى رجاء: - أتعديني بأن نسير معاً؟/ فهتفت به: - لا أعد شيئاً ... دع يدي...» (محفوظ، لا تا: ١٩٧ - ١٩٨) وعندما عرفت الأفندي معرفة صحيحة غضبت عليه وما أجمل ما قال نجيب محفوظ فى وصف «حميدة» آنذاك «وارتمت عليه ناشبة أظافرها فى عنقه؛ ولن تجفوه حركتها المباغته فتلقاها بسكينة، وقبض على ساعديها وفرح بينهما ثم تخلص منها والابتسامه الهازئة لتفارق شفتيه، فاشتدّ حنقها وغضبها، ورفعت يدها بسرعة خاطفة وصفته بكلّ ما أوتيت من قوة وعصبية وغاصت ابتسامته» (المصدر نفسه: ٢٨٢).

فإذا تأملنا فى هذه الأقوال والأوصاف نرى بأن الفقر قد تضمّن جميع أحوال «حميدة» وأدّى إلى العنف الشديد فى شخصيته إضافة إلى كثير من الصفات الذميمة التى أشرنا إليها فيما مضى، ويتّضح العنف بكلّ الوضوح فيما خاطبت به «فرج ابراهيم» وكذلك عند خطابها لـ «عبّاس الحلو» حينما غضب عليها ونسب إليها الفحشاء، خاطبته «حميدة» هكذا: «صه ... لا تزعق كالمجانين، أحسبت أنك تخوفنى بصراخك؟! ماذا تريد منى يا هذا؟ لا حقّ لك علىّ فأغرب عن وجهي» (المصدر نفسه: ٢٨٧) وفى هذه العبارات أيضاً تتّضح غلبة البطش الشديد على «حميدة» حيث لا تبالى بما تقول لـ «عبّاس» فكأنّها نسيت أنّ «عبّاس» هو ذلك الرجل الذى عَشِقها شديداً حيث رحل عن بلاده للحصول على الثروة العظيمة حتّى يُرضى «حميدة» للزواج.

٥. الفساد

مهما أوتى الإنسان من أسباب التربية والتّهديب، فستظلّ نسبة منه ضحيّة لأهوائها الجامحة وغرائزها الكامنة؛ لذلك نجدُ الفساد في جميع الدّول متخلّفةً و متقدّمةً، غير أنّ الأمر يختلفُ بين دولة وأخرى في درجة مقاومتها للفساد (محمفوظ، ١٩٩٦م: ١٧٧). يعترف نجيب محفوظ نفسه بأنّ المجتمع المصري قد تعرّض لآفات شرسة نتيجة لحكمٍ شمولى غاشم، وحروب طاحنة وأزمات اقتصادية وإحباطات متلاحقة، فنسى نفسه وتقاليد النبيلة وذهل عن مبادئه ولو تقصينا عن أسباب الخسائر لوجدنا أنّها ترجعُ إلى الفساد بمثل ما ترجعُ إلى سائر الإحباطات (المصدر نفسه: ٢٩ و ٣٠)؛ ويرى بأنّه يجب الإسراع إلى تطهير البلاد من الفساد حتّى نُعيد إلى الحياة توازنها وإلى الأنفس الثقة والأمل حتّى يصير المجتمع مجتمعاً قوياً يستحقّ الدفاع والتضحية (المصدر نفسه: ١٠٥). ومن أهمّ أسباب الفساد نستطيع الإشارة إلى الفقر وفقدان الثقافة والقيم التي تؤثر على الصفات والنزوات الشخصية، ونظام الحكم. لا شكّ أن الفقر يمكن أن يقود إلى الفساد كما يمكن أن يعمق ويرسخ الفساد في المجتمع (الخوaja، ٢٠١٢م: ٦).

هناك في هذه الرواية عبارات تدلّ على هذه الظاهرة في حياة «حميدة» ومنها أقوال أتراب «حميدة» حول فقدانها «لاندري شيئاً على وجه اليقين، إلا ما قلته لأمّها حين جاءتنى يوم اختفائها تسأل عنها، من أنّنا رأيناها مرات بصحبة أفندي يسيران معاً في «الموسكى» فسألها مدهشاً: «أرأيتها بصحبة أفندي؟!» ثمّ خاطب نفسه قائلاً: «رّياه كيف أعقل هذا! أهربت حميدة حقاً مع رجل؟!» (محمفوظ، لا تا: ٢٥٦). ومثل هذه العبارات هي عباراتٍ خاطب «عبّاس» «حميدة» بها: «كاذبة فاجرة ... أغواك فاجر مثلك ففررت معه، وتركت وراءك في حيّك أسوأ الذكري، وها هو الفجر السافر يطالعي في وجهك وتبرّجك الفاضح» (المصدر نفسه: ٢٨٧)، ثمّ أضاف «ماذا صنعتِ بنفسك؟ كيف انقلبت إلى هذا المصير الأسود؟ أي شؤم أعمى بصيرتك؟ ومن يكون (وهنا استغلظ صوته) ذلك المجرم الذي خطفك من حياتك الطاهرة و طرحك في مزبلة الدعارة؟» (محمفوظ، لا تا: ٢٨٨) وكذلك «لا أستطيع أن أنسى أنّك فررتِ معه ولا أنّهم رأوك تسيرين في صحبته» (المصدر نفسه: ٢٩١)، نرى في هذه العبارات مدى تعصّب «عبّاس الحلو» ويتّضح كلّ الوضوح أنّه أشدّ أهل الزقاق حزناً وغضباً بسبب فقدان «حميدة» وارتكابها هذا العمل

القبیح، ومن مظاهر صدى هذا الفساد هو قول السيّد «رضوان الحسيني» حول ما مضى بالزقاق: «ثمّ كان من أمر زقاقنا ما تعلمون، فشدّ الشيطان على أعين رجلين وفتاة من جيراننا، أمّا الرجلان فقادهما إلى قبر ينشبانه وغادرهما في السجن؛ وأمّا الفتاة فاستدرجها إلى هاربة الشهوات وغاص بها في حماة الرذيلة» (المصدر نفسه: ٢٩٧ - ٢٩٨). وأيضاً عندما أخبر «حسين كرشة» أباه بقتل «عبّاس الحلو» وأحوال «حميدة» التي كانت تسهم في هذا العمل بهذه العبارة: «وقد مضى بي ليّريني الحلنة التي وعدته إياها الفتاة الشريرة، وإنّا نمرّ ببابها إذ رأى العاهرة تعربد في جمع من الجنود» (المصدر نفسه: ١١٠). فنشاهد كيف انبعث شعور أهل الزقاق من هذا الفساد حيث لم يستطيعوا أن ينسوا هذا الأمر فحزنوا كثيراً وتكلّموا عن هذه الظاهرة وعدّوها السبب الرئيس في قتل رجلين من أهل الزقاق، فكلّ هذه الجملات تدلّ أحسن الدلالة على مدى اهتمام أهل الزقاق بقبح أعمال «حميدة».

وفي النهاية يأتي نجيب محفوظ بكلام يدلّ على نتيجة هذا الطموح السيء في «حميدة» حيث أدعت نفسها بهذه الظاهرة القبيحة قائلة: «لستُ إلّا شقيّة يا عبّاس! لا تؤاخذني على سوء قولي، فقد أفقدني الشقاء وعيى. إنكم جميعاً تروننى عاهرة فاجرة، والحقّ إنى شقيّة بائسة. خدعنى الشيطان الرّجيم كما دعوتّه بحقّ، لا أدري كيف أدعتُ إليه ومع ذلك فلستُ أنتحل لنفسي عذراً ولا أطمع أن أسألك العفو؛ فإنى أعلم أنّى مُذنبّة وها أنا ذى أدفع ثمن جريرتى النكراء. أعفُ عن غضبي الذى أهاجته كلماتك العادلة، وأبغضنى واحتقرنى ما شاءت لك نفسك الطاهرة الكريمة، واشمت بي فلستُ فى حاضرى إلّا ألعبوبة رخيصة فى يد من لا يرحم» (المصدر نفسه: ٢٩٠)، وفى هذه الأقوال التى تُعتبر إذعان «حميدة» بعمله الفضيح نرى ندامتها العميقة تجاه «عبّاس» وخيانتها إياه ولعلّ أصدق قول على أية ظاهرة هو إذعان الشخص بعمله.

٦. الفقر

هو من أخطر القضايا وأكثرها تعقيداً وقياساً وقراءةً، فالعديد من الثورات الاجتماعيّة والسياسيّة الكبرى التى كان الفقر أحد أسبابها الرئيسة. وهو مدخل كثيرين إلى الانحراف كما هو الدافع وراء العديد من جرائم السرقة والقتل والاعتصاب والمخدرات (محفوظ،

١٩٩٦م: ١٨٤)، وعندما نتحدث عن الفقر ليس مرادنا محدودية الدخل فحسب بل يتعدى ذلك إلى ضعف وسائل الحماية الاجتماعية التي تستهدف الأمن الاجتماعي لمستقبل ذوى الدخل المحدود أو المعدوم (الخوaja، ١٢٠٢م: ٧). فتتبرز مظاهر الفقر فى شخصيّة «حميدة» لاسيّما عند توصيفها عند خروجها من البيت فى العبارات التالية: «وقطعت الزقاق فى عناية بمشيتها وهيئتها لأنها تعلم أنّ أعيناً تتبعها متفحصة ثابتة، عيني السيّد سليم علوان صاحب الوكالة، وعيني عباس الحلو الحلق، ولم تكن تفاهة ثيابها لتغيب عنها، فستان من الدمور وملاءة قديمة باهتة وشبشب رقّ نعلاه» (محفوظ، لا تا: ٤٢-٤٣)، وكذلك عندما يصرّح المؤلف بما يدور فى بال «حميدة» قائلاً: «ولكنّها أحجمت بادئ الأمر عن خروجها إلى فسحتها اليومية لرقّة ثوبها» (محفوظ، لا تا: ١٦٩). كما نقرأ فى موضع آخر: «ولكن آه لو كانت تملك ملاءة حسنة أو شبشباً جديداً؟!» (المصدر نفسه: ١٧٠). وأيضاً إذا خاطبه الأندى «فرج ابراهيم» مستخفاً بها: «كيف تسيرين بملاءتك بين هولاء الفتيات! أين هنّ منك! أميرة فى ملاءة، ورعية ترفل فى الثياب الجديدة» (المصدر نفسه: ١٧٨)، و«كيف يرفلن فى الثياب الزاهية بينا تلتحفين أنتِ فى هذه الملاءة السوداء» (المصدر نفسه: ١٩٩). يستطيع القارئ أن يصرّح شخصيّة «حميدة» وملابسها واضحاً، وهذه العبارات كلّها تدلّ على قدرة الكاتب على تجسيم هذه الحالة، فإذا تأملنا فى هذه النماذج نرى بأنّ «حميدة» كانت تعيش فى أدنى درجة من الحياة ولم تملك إلّا ضئيلاً من مُتعة الحياة حيث كانت تخجل أن تظهر أمام الناس ولكن حرّضها طموحها الكثير إلى الخروج من البيت.

٧. الانتقاد عن ظروف الحياة

الانتقاد فى الحقيقة عملٌ إيجابى فإذا توقّرت فيه المقومّات الصحيحة يكتشف مواضع الضعف، ويضع الإصبع على العيب على أنّ ذلك كلّه يجب أن يتمّ فى ظروف مناسبة تفعل فعلها الإيجابى، وإنّ ما يضعف العلاقات فى الأسرة ويعرضها للتفكّك هو الانتقاد المرّ وتحطيم روح الثقة بين أعضاء الأسرة. هناك فى مواضع عديدة من هذه الرواية عبارات تدلّ على انتقاد «حميدة» عن موقفها الاجتماعى، وبهذه الأقوال تسدل الستار عمّا تعاني منه الفتاة المصرية فى ذلك المجتمع ذى الطابع الطبقي، فمنها ما أوردتها «حميدة»

منتقدةً من ظروف حياتها والعيش في ذلك الزقاق إذا كانت تُجيب أمّها التي تستحسن أهل الزقاق بقولها: «لا تسلقى أهل الزقاق بلسانك، إنَّ أهله سادة الدنيا» (محفوظ، لا تا: ٢٩) فقالت «حميدة»: «سادة دنياك أنتِ، كلّهم كعدّتهم، اللهم إلّا واحداً به رمق جعلتموه أخي» (المصدر نفسه: ٣٠)، وفي موضع آخر غمغمت بلهجة تنمّ عن الإعجاب: «آه يا خسارتك يا حميدة، لماذا توجدين في هذا الزقاق؟! ولماذا كانت أمّك هذه المرأة التي لا تميّز بين التبر والتراب؟!» وكذلك عندما قارنت نفسها مع أترابها من بنات المشغل خاطبت أمّها منتقدة: «آه لو رايت بنات المشغل! آه لو رايت اليهوديات العاملات، كلهن يرفلن في الثياب الجميلة، أجل ما قيمة الدنيا إذا لم نرتد ما نحب؟!» (المصدر نفسه: ٣١)؛ في هذين المثالين تخاطب «حميدة» أمّها وتشكو من العيش في ذلك الزقاق الذي يتضمّن كثيراً من الأهل الذين لا يعرفون شيئاً من التقدّم ولا يباليون بزخرف الحياة كما تريد «حميدة»، وفي موضع آخر يصفها نجيب محفوظ هكذا: «ثمّ تراجعت فجأة كأنها ملت موقفها، وعادت إلى المرأة ملقية إليها نظراً فاحصاً، وتنهدت وهي تقول: يا خسارتك يا حميدة» (المصدر نفسه: ٣٢) وكذلك عندما خاطبت نفسها بصوت مرتفع قائلة: «هذه آخر طبخة في هذا البيت، وربّما كانت آخر طبخة في حياتي! ترى متى أكل العدس مرةً أخرى؟!» ولم تكن تستكره العدس ولكنها كانت تعلم أنه غذاء الفقراء وشعار مائدتهم، كذلك لم تكن تعلم شيئاً عن طعام الأغنياء ألا أنه لحم ولحم ولحم» (المصدر نفسه: ٢١٧).

وفي هذه الأمثلة الأخيرة تنتقد ظروف حياتها مخاطبةً نفسها وربّما يرجع السبب الرئيس في أنّ «حميدة» خاطبت نفسها لتشكو من ظروف الحياة إلى أنه لم يكن في ذلك الزقاق أحدٌ يدرك تلك الفتاة الفقيرة الطامحة وتطلّباتها.

٨. تمرّد حميدة وطموحها

قلّما نجد مظاهر الفساد في المجتمع إلّا أن تكون لها جذورٌ في الطموح الشديد إلى الدنيا ونعماتها، والإنسان الذي يطمع في الحياة الماديّة شديداً، فيبيد مكارم الأخلاق ويُميت شرافة نفسه؛ إذ لا يُبالي إلّا بغرائز نفسه وإرضائها (بابا زاده، ١٣٧٤: ٢/ ٥٠٣). ومن دوافع هذا الطموح الشديد نستطيع الإشارة إلى الحرص، الجهل ولاسيّما الحرمان عن

رفهية العيش الذى لا يكاد يحوّل إلى عقدة نفسية فى الشخص (المصدر نفسه: ٥١١). كما تكون الحال فى هذه الرواية حيث إنّ «حميدة» هى المرأة الوحيدة فى «زقاق المدق» التى تخرج عن تقاليد الزقاق وتشرّد بعيداً عن قطاع كلّ النساء العاقلات، الزوجات والأمهات والفتيات العاديات اللواتى يعشن فى خضوع ورضا بحالهنّ فى ظلّ التقاليد المتعارف عليها فى ذلك الحىّ الشعبى الفقير فى قاهرة الأربعينات. جعل المؤلف من «حميدة»، المرأة التى تعكس الصراع الدائر داخل نفوس أهل الزقاق؛ فالقارئ يرى من خلال «حميدة» مرارة الفقر والعوز الذى يعيش فيه الجميع (العشماوى، ٢٠٠٥م: ٣٤).

نعم! كانت «حميدة» تخرق العادات والتقاليد فتتطلع من نافذتها فترى العالم يركض إلى الأمام إلّا هى؛ إذ ترى نفسها حشرة قذرة ملتصقة بهذا الزقاق فيدفعها طموحها للتمرد. فكانت لا ترى فى فقر «عبّاس الحلو» سوى سلسلة من المشاكل والإجباطات بصورها المرعبة التى تبحث لنفسها عن مخرج ومهرب منها سيّما وأن كيانها كله تملأه رغبة عارمة للمال والجاه والثياب الفاخرة والحلى النفيسة. فإنّ الطموح إلى الحياة المليئة بالزخارف نزعاً استأصلت فى نفس حميدة منذ صغرها، وهذا يعود إلى عيشها فى ذلك الزقاق عيشاً ضنكاً ولم يكن باستطاعته النيل إلى ما تتمنى من الظروف المادية وهذه الظاهرة تبرز تماماً فى أعمالها وأقوالها كقولها فى خطاب «عبّاس الحلو» عندما كان على شرف السفر للاتصال بشرطة الإنجليز: سكت «عبّاس الحلو» لحظة متنهّداً، ثمّ استطرد: «أسافر باسمه، وبفضله أعود وقد ربحتُ كثيراً. فتمتت (حميدة) وهى لا تدري: كثيراً إن شاء الله» (محفوظ، لا تا: ١١٥) وأيضاً عندما يصف أعمالها طوال حبّها لـ «عبّاس الحلو» قائلاً: «ولكم تساءلت (نفسها): ترى هل تظفر واحدة من صويحباتها بنات المشغل بخير منه؟ وتعمّدت أن تسير معه وقت ظهورهنّ، وجعلت تسترق النظر إلى أعينهنّ الفاحصة وكأنّها ارتاحت إلى ما تركه فيهنّ من أثر. وقد سألتها يوماً عن الشباب «الذى رأيته معاً» فقالت: «خطيبى صاحب صالون حلاقة!» وقالت لنفسها: أن أية واحدة منهنّ لتعد نفسها سعيدة إذا خطبها صبة قهوة أو صبي حداد، وهذا صاحب دكان، أو سطي وأفندى أيضاً! كانت مشغولة أبداً بالموازنة والاختيار والتفكير» (المصدر نفسه: ١١١). وفى هذه العبارات نستطيع أن نرى مدى طموحها إلى رفهية الحياة حيث كانت تمنى أن تشاهدها أترابها حين مصاحبها «عبّاس الحلو» حتّى تفخر عليهنّ ولعلّ السبب الرئيس الذى شجّعاه على

الكلم مع «عبّاس الحلو» هو ما أخبرها عنها «عبّاس» حول سفره واتصاله بشرطة الإنجليز وهذا السفر هو الذى خطّطه «عبّاس» للحصول على ما يُرضى نفس «حميدة» من النقود وزخرف العيش.

نتيجة البحث

تناول نجيب محفوظ فى رواية «زقاق المدق» كثيراً من المعضلات الاجتماعية لاسيّما تلك القضايا التى لها صلة وثيقة بحياة الطبقة المعوزة خاصة النساء الفقيرات وهذا تعميقاً لوعى المجتمع بخطورة التخلف الاجتماعى وغياب القيم. هناك لهذه المسائل الاجتماعية دور هام فى اشتهاره فى هذه الرواية والكشف عمّا فيها من المعضلات الاجتماعية التى وقعت تحت وطأتها «حميدة». تعود أهمية هذه الرواية فى مضمونها الإنسانى وغايتها السامية التى كانت تتطلع إليها من خلال طموح هذه الشخصية وتمردّها الذى كانت الحرب بأثارها المادية والاجتماعية أول محرّك لمأساة الزقاق والعديد من الجرائم والانحرافات، وهذا ما أدّى به «حميدة» إلى الانحراف، فدراسة هذه الرواية من منظور علم اجتماع المحتوى يساعد علماء الاجتماع لإصلاح المجتمع وخلوّه من الفساد والانحراف. وهى كما أرادها نجيب محفوظ تمثّلت طليعة ثورة فى المجتمع المصرى على القيم والعادات والتقاليد التى تكبل الإنسان المصرى وتبعده عن الحرية والتجديد الحضارى، لكن خروج «حميدة» لم يكن محصناً؛ إذ وقعت فى دائرة أخرى أقسى وأمرّ وهى دائرة الانحراف، وهذا أمر يكشف عن الأزمة السياسية والاقتصادية التى كانت تسود المجتمع المصرى ومن ضحايا هذه الأزمة هى «حميدة» التى استخدمها نجيب محفوظ كنموذج نسائى قام بدور بارز فى انعكاس المعضلات الاجتماعية السائدة فى المجتمع المصرى آنذاك المتمثلة فى شخصية هذه الفتاة التى يتجلّى مضمون الرواية فى أعمالها ومصيرها؛ فهى التى كانت تميل إلى الثروة وزخرف الحياة والحصول على الرفهية بأىّ نحو كان حيث كأنّها عمّت عيونها عن الطريق السليم ولم يكن السبب إلّا ظروف الحياة وهى الفقير والجحمان الغالب على حياتها إضافة إلى طموحها الكثير إلى رغد العيش وهذا أمر طبيعى غالب على حياة كثير من الفتيات الفقيرات فى الطبقات المعوزة والبلدان المحرومة فاستطاعت شخصية «حميدة» انعكاس أزمتهنّ فى ذلك المجتمع، ولكن علينا الإذعان

بأنّ العامل الرئيس في الكشف عن هذه المعضلات التي أدّت إلى سقوطها في مهالك السوء والفساد والفحشاء هو دراسة هذه الرواية وفق منهج علم اجتماع المحتوى الذي يفحص الآثار الأدبية من حيث مضامينها بغضّ النظر عن أساليبها الفنيّة.

المصادر والمراجع

- أبوهيف، عبدالله. ١٩٩٦م، **اتجاهات النقد الروائي في سورية**، دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
- أحمد فراج. ٢٠٠٣م، **الثقافة والعولمة، الهيئة العامة لقصور الثقافة**، دون مكان: كتاب أبحاث المؤتمر الرابع لإقليم غرب ووسط الدلتا.
- آلن اس. ميلوارد. ١٣٧٥ش، **جنگ، اقتصاد و جامعه**، ترجمه حسين ميرجليلى، تهران: انتشارات دانشگاه امام حسين(ع).
- بابازاده، على اكبر. ١٣٧٤ش، **زمينه‌های فساد در جامعه و راه درمان**، دوره دو جلدی، قم: انتشارات قدس.
- بدوى، محمد. ٢٠٠٦م، **الرواية الحديثة في مصر**، برعاية سوزان مبارك، قاهره: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- زالا مانسكى، هنرى. ١٣٨١ش، **بررسی محتواها، درآمدی بر جامعه‌شناسی ادبیات**، چاپ پنجم، تهران: نشر چشمه.
- سويدان، سامى. ٢٠٠٦م، **المتاهة والتمويه في الرواية العربية**، بيروت: دار الآداب.
- صابر، نجوى. ١٩٩٠م، **النقد الأخلاقي أصوله وتطبيقاته**، بيروت: دار العلوم العربية.
- عبد المعطى، عبدالباسط. ١٩٨١م، **اتجاهات نظرية في علم الاجتماع**، الكويت: عالم المعرفة.
- عسگرى حسنك لو، عسگر. ١٣٨٧ش، **نقد اجتماعى رمان معاصر فارسى**، تهران: فرزانه روز.
- العشماوى، فوزية. ٢٠٠٥م، **المرأة في أدب نجيب محفوظ**، برعاية سوزان مبارك، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- عودة، محمود. دون تاريخ، **أسس علم الاجتماع**، بيروت: دار النهضة العربية.
- غنيمى هلال، محمد. ١٩٩٧م، **النقد الأدبي الحديث**، القاهرة: نهضة مصر.
- غولدمان، لوسيان. ١٩٩٣م، **مقدمات في سوسولوجية الرواية**، ترجمة بدرالدين عرودكى، سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع.
- الغيطانى، جمال. ١٩٨٠م، **نجيب محفوظ يتذكّر**، بيروت: دار المسيرة.
- فريجات، عادل. ٢٠٠٠م، **مرايا الرواية (دراسات تطبيقية في الفن الروائي)**، دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
- قصاب، وليد ابراهيم. ٢٠٠٩م، **مناهج النقد الأدبي الحديث (رؤية إسلامية)**، الطبعة الثانية، دمشق: دار الفكر.

كاظمی پور، عبدالحمّد. ۱۳۸۲ش، باورها و رفتارهای مذهبی در ایران، تهران: انتشارات طرح ملى وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامى.

گریس، ویلیام جوزف. ۱۳۸۱ش، ادبیات و بازتاب آن، مترجم بهروز عزبدفتری، تبریز: انتشارات فروزش.

لونتال، لئو. ۱۳۸۶ش، رویکرد انتقادی در جامعه‌شناسی، ترجمه محمدرضا شادرو، تهران: نشر نی.

محفوظ، نجیب. دون تاریخ، زقاق المدق، القاهرة: مكتبة مصر.

محفوظ، نجیب. ۱۹۹۶م، حول التّدين والتّطرّف، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

محمد، عزیزة محروس وآخرون. ۲۰۰۸-۲۰۰۹م، أسباب العنف وآثاره على المجتمع المصرى، القاهرة: جامعة القاهرة.

مرتاض، عبدالملك. ۱۹۹۸م، فى نظرية الزّواية (بحث فى تقنیات السرد)، الكويت: عالم المعرفة.

میرعابدینی، حسن. ۱۳۸۰ش، صد سال داستان نویسی ایران (دوره سه جلدی)، چاپ دوّم، تهران: نشر چشمه.

هانری میشل. ۱۳۷۰ش، جنگ جهانی دوّم، ترجمه عباس آگاهی، مشهد: انتشارات آستان قدس رضوی.

المقالات

الخواجا، حمدى. ۲۰۱۲م، «أثر الفساد على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية»، ورقة عمل مقدمة فى الورشة التدريبية بعنوان "الموروث الدينى ودوره فى محاربة الفساد"، فلسطين، صص ۱- ۱۳.

رحمدل، غلامرضا و سهيلا فرهنگى. پاییز ۱۳۸۷ش، «پژوهش‌های میان رشته‌ای در مطالعات ادب فارسى»، نشریه پژوهش‌های ادبی، شماره ۲۱، صص ۲۳ - ۴۴.

ریحانی أردبیلی، عظيمة، وسيد إبراهيم ديباجى. ربيع ۱۳۹۳ش، «دراسة مقارنة بين روايتى «تنگسير» و «اللس والكلاب»»، فصلية دراسات الأدب المعاصر، جامعة آزاد الإسلامية، فرع جيرفت، السنة السادسة، العدد الواحد والعشرون، صص ۴۱ - ۶۲.

سالم، نادية. سبتمبر ۱۹۸۳م، «إشكاليات استخدام تحليل المضمون فى العلوم الاجتماعية»، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد الثالث، صص ۴۳ - ۶۰.

صیادانى، على وآخرون. ربيع ۱۳۹۴ش، «إشكالية خصائص النقد التآثرى فى الأدب العربى»، دراسات الأدب المعاصر، جامعة آزاد الإسلامية، فرع جيرفت، السنة السابعة، العدد الخامس والعشرون، صص ۳۳ - ۴۴.

منتظري، آزاده ومحمد خاقاني اصفهاني، ومنصورة زركوب. صيف ١٣٩١ش، «النقد الاجتماعي للأدب نشأته وتطوره»، فصلية إضاءات نقدية، العدد السادس، صص ١٥١ - ١٧٢.